ثلاثية الفقر والمرأة والطفولة كما يصورها معروف الرصافي

منجد مصطفى بهجت*

مقدمة

أيمكن أن يكون معروف الرصافي واحداً من الشعراء المصلحين؟ هناك من ينكر ذلك إذ لا يجد فيه مقومات الإصلاح على نحو ما نعهدها في المصلحين، وفي مقدمة هذه المقومات سيرة الشاعر، إذ فيها ما يقدح في رفعه إلى مصاف الصلحاء والمصلحين. وهذا شأن ذوي السمعة والشهرة، ينقسم فيهم الناس بين قادح ومادح، ويكونون فيهم على طرفي نقيض، فقد وصفه محمد رضا الشبيبي بالمجون، ومجاهرته بالمعتقد على علاته، والتعبير عما يجول بخاطره،[1] ولكنه لم يستطع أن يطعن في عقيدته، اعتماداً على وصيته، ولذلك عدّه ممن خلط الحسنة بالسيئة في أدبه.[2]

وممن أنكر على الرصافي مواقفه، ووجد فيها ما يشين ويعيب عابد توفيق الهاشمي.[3]

---

* أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها في كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية-ماليزيا.

[1] علي، مصطفى، **أدب الرصافي، نقد ودراسة** (بغداد: مكتبة المثنى، 1947م)، ص26-27.

[2] المصدر السابق، ص20.

[3] الهاشمي، عابد توفيق، **الوجيز في الأدب الإسلامي المعاصر وتاريخه (العراق)** (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1999 م)، ص65.

وكان بدوي طبانة في كتابه عن الرصافي منتقصا منه. وقد قدم له الشبيبي وتابعه في ذلك، ولذلك أنكر مصطفى علي، محقق ديوان الرصافي وصديقه، معظم هذه الآراء، وتصدى لهما بالمناقشة والتفنيد في مقالات نشرها في جريدة "البلاد"، ثم عاد وجمعها في كتاب مطبوع.[1] ومن الدراسات التي نظرت إلى الرصافي سياسياً وأثبتت له هذه الصفة الرسالة العلمية التي تقدم بها رؤوف الواعظ بعنوان: "معروف الرصافي: حياته وأدبه السياسي"،[2] وتناول في هذا الكتاب مما يتصل ببحثنا، أعني المرأة والبؤس والفقر.

أما الذين انتقصوا أشعاره فنياً، فمنهم حنا الفاخوري حين جعل في وصفه طرافة في غير إبداع ولا براعة فنية، ووجد في شعره تعبيراً صادقاً عن وجدانه، ولكنه محدود الخيال، يفتقر إلى الروعة والأناقة،[3] ولم يختلف عنه في كثير محمد مصطفى هدارة[4] حيث قرر أن أشعاره تفتقد روعة الخيال ورونق التعبير، وتمتلئ بالصور التقليدية، وبمظاهر الصنعة البديعية المتكلَّفة، وهما لا يخلوان من حيف على الشاعر لأن أحكامهما لم تُبْنَ على الاستقراء فيما يبدو. ومن النقاد المحدثين علي جواد الطاهر الذي وصف شعر الرصافي بالإجادة، لكنه عاب عليه الإكثار واتخاذ الشعر مقالة، مما أوقعه في نثرية شديدة.[5]

والباحث إذ ينظر في ديوان الشاعر، لا تلتبس عليه دعوته الصريحة إلى الإصلاح من وجوه مختلفة وصور متعددة، ولعله كان ممن يتمثل بقول الشاعر:

انظرْ إلى عِلْمي ولا تنظرْ إلى عمَلي ينفعك عِلْمي ولا يغررك تقْصِيرِي

---

[1] علي، مصطفى، **أدب الرصافي، نقد ودراسة**، مصدر سابق، وقد ذكر المؤلف أنه نشر مقالاته في نيسان، وأيار، وحزيران عام 1947م.

[2] تقدم برسالته في جامعة القاهرة، عام 1961م، وطبع في دار الكتاب العربي بمصر. د.ت.

[3] الفاخوري، حنا، **الجامع في تاريخ الأدب العربي** (بيروت: دار الجيل، 1986م)، ج2، ص499-500.

[4] هدارة، محمد مصطفى، **دراسات في الأدب العربي الحديث** (بيروت: دار العلوم العربية، 1988م)، ص22.

[5] النجمي، صادق نجمي، **معجم الشعراء العراقيين** (بغداد: شركة المعرفة، 1990)، ص413، حيث أورد رأي د. علي جواد الطاهر.

لم يعش الشاعر في عالم بعيد عن مجتمعه وأبناء أمته، ولم يدع صغيرة أو كبيرة مما كان يضطرم حوله من حياة سياسية أو اجتماعية بمنأى عن تناول شعره. لقد نادى بأعلى صوته مستنهضاً الهمم والعزائم في هذا الاتجاه، وبذل كل طاقته وقصارى جهده في هذا السبيل، وقد صرح الشاعر بتفاعله مع أحداث بلاده، وأنه منطلق فيها من منطلق الإصلاح لا الإفساد، فقال: "أغرّد إذا رأيت بلادي عامرة، وأنوح إذا رأيتها غامرة، أطرب كل الطرب إذا رأيت كرام قومي يتعاونون، ولكن معاذ الله أن أقنط فإذا رأيتهم يتخاذلون، أحمدل وأسبح بحمد المصلحين وأصبّ صيب اللعنات على المفسدين".[1]

ودونك ديوانه الذي تعدُّ قصائده ذات الطابع السياسي أكثر من ثلاثة آلاف بيت بنسبة 35٪، وأما قصائده ذات الطابع الاجتماعي فتتجاوز أربعة آلاف بيت بنسبة 47٪ وهذان الاتجاهان يمثلان 82٪ من مجموع الديوان، والشاعر غزير الإنتاج حيث بلغت أشعاره حوالى تسعة آلاف بيت.[2]

وتأتي ثلاثية الفقر والمرأة والطفولة اتجاهاً واضحاً في شعره الاجتماعي، ذات أبعاد جلية المعالم. ولم يعرض الباحثون لهذه العناصر الثلاثة مجتمعة في شعره، بل تناولوا مشهد الفقر بالمستوى الأول، ثم مشهد المرأة بالمستوى الثاني، ثم كانت الطفولة آخرها عناية من الباحثين. وهذا البحث يعرض لهذه الثلاثة المحاور في سلك واحد،كما يتناولها من منطلقين هما: تشخيص الداء، وتقديم الحلول والعلاج، بالوقوف عند المباحث التالية:

حياته وسيرته، آثاره، رسائله، تشخيص الداء، مشكلة الفقر، الفقر والمرأة، الفقر

---

[1] الواعظ، رؤوف، **معروف الرصافي حياته وأدبه السياسي** (القاهرة: دار الكتاب المصري)، ص7، نقلاً عن جريدة **الأمل**، العدد 2، نوفمبر 1923.

[2] تختلف الطبعات في عدد الأبيات، وعدد القصائد، والطبعة التي اعتمدتها في البحث هي طبعة دار الفكر العربي، بيروت، 2002 وقد بلغت عدد القصائد 414 قصيدة، وعدد الأبيات 8954 بيتاً.

والطفولة، الحلول والعلاج، ثم الخلاصة.

حياته وسيرته

عاش الرصافي أحداثاً جسيمة، وشهد متغيرات كثيرة في العراق خاصة والعالم الإسلامي عامة، فقد عاش بين عامي 1875م-1945م. ولد ببغداد، ونشأ بها في "الرصافة"، وتلقى دروسه الابتدائية في المدرسة الرشدية العسكرية، ولم يحرز شهادتها. وتتلمذ لمحمود شكري الآلوسي في علوم العربية وغيرها، زهاء عشر سنوات، واشتغل بالتعليم، ونظم أروع قصائده في الاجتماع والثورة على الظلم قبل الدستور العثماني، ورحل بعد الدستور إلى الأستانة، فعين معلماً للعربية في المدرسة الملكية، وانتخب نائباً عن "المنتفق" في مجلس "المبعوثان" العثماني وهجا دعاة الإصلاح واللامركزية من العرب.

انتقل الرصافي بعد الحرب العالمية الأولى عام 1918م إلى دمشق، ثم عين أستاذاً للأدب العربي في دار المعلمين بالقدس، فأقام مدة وعاد إلى بغداد حيث عين نائباً لرئيس لجنة الترجمة والتعريب ثم أصدر جريدة الأمل (يومية) سنة 1923م، فعاشت أقل من ثلاثة أشهر، وعين مفتشاً في المعارف، فمدرساً للعربية وآدابها في دار المعلمين، فرئيساً للجنة الاصطلاحات العلمية، واستقال من الأعمال الحكومية سنة 1928م، وانتخب "عضواً" في مجلس النواب، خمس مرات مدة ثمانية أعوام، وزار مصر سنة 1936م. وعندما قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني في أوائل الحرب العالمية الثانية نظم أناشيدها وكان من خطبائها، ولما فشلت عاش بعدها في شبه انزواء عن الناس إلى أن توفي ببيته في الأعظمية ببغداد.

مؤلفاته

1. "ديوان الرصافي-ط"، وهو في جزئين، اشتملت الطبعة الثانية منه على أكثر

شعره، إلا أهاجي ومجونيات مازالت مخطوطة متفرقة فيما أحسب. ولهذا الديوان طبعات كثيرة، اعتمدنا في بحثنا هذا على طبعة مصر.[1] 2. "دفع الهجنة – ط"، رسالة في الألفاظ العربية المستعملة في اللغة التركية وبالعكس، 3. "دفع المراق في لغة العامة من أهل العراق" نشر متسلسلاً في مجلة "لغة العرب"، 4. "رسائل التعليقات في نقد كتاب النقد الفني وكتاب التصوف الإسلامي – ط" وكلاهما للدكتور زكي مبارك، 5. "نفح الطيب في الخطابة والخطيب–ط"، 6. "محاضرات الأدب العربي–ط" جزآن، 7. "ديوان الأناشيد المدرسية–ط"، 8. "تمائم التربية والتعليم ط" شعر، 9. "آراء أبي العلاء–خ"، 10. "على باب سجن أبي العلاء–ط" نشر بعد وفاته، 11. "والآلة والأداة–خ" في استعمال الأدوات والآلات التي يحتاج إلى استعمالها.[2]

كذلك كتابه "الشخصية المحمدية"[3] وقد نشر مؤخراً مطبوعاً، وأحدث ردود فعل سلبية ورمي صاحبه بالكفر. وفي رسالة للرصافي كتبها سنة 1944م إلى الشاعر نعمان ماهر الكنعاني نجد الشاعر يسأله أن ينشر إعلاناً يتبرأ فيه من كتابه، بسبب نقل الناس منه مسائل محرفة ومشوهة.[4]

---

[1] وهي الطبعة السادسة، المكتبة العصرية، بغداد، 1957م، وهي في جزئين بتقديم عبد القادر المغربي، وعبد الصاحب البدرائي جاءت في 562 صفحة وفهرسين للقصائد حسب الأبواب، وفهرس آخر حسب القوافي في إحدى عشرة صفحة، أفدت من هذه الطبعة لكني اعتمدت على طبعة دار الفكر العربي،شرح وتعليق د. يحيى شامي وهي في جزء واحد–بيروت 2002. وهناك طبعة أخرى مماثلة لهذه الطبعة هي طبعة وزارة الإعلام العراقية 1972م، لكنها في خمسة أجزاء ولم أستطع الوصول إليها، وقد أعانت المكتبة المركزية بالجامعة الإسلامية بماليزيا فوفرت للباحث طبعة مماثلة، شرح وتعليقات مصطفى علي، دار المنتظر والدار العربية للموسوعات–بيروت 2000، فلا يفوتني شكرها في هذا المقام.

[2] الزركلي، خير الدين، **الأعلام** (بيروت: دار العلم للملايين، ط7، 1986)، ج7، ص268–269 وقد جاء التعريف به موجزاً جداً في **الموسوعة العربية العالمية** (الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، 1996)، ج11، ص222، ولم يذكر من مؤلفاته إلا اثنين فضلاً عن ديوانه. وينظر في ترجمته كذلك: قبش، أحمد، **تاريخ الشعر العربي الحديث** (بيروت: دار الجيل، 1971)، ص400–401.

[3] وقد علمت أن دار الجمل قد نشرت الكتاب سنة 2002م، ولكني لم أطلع عليه.

[4] ينظر الرشودي، عبد الحميد، **رسائل الرصافي** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1994)، ص 112، وصفوة، نجدة فتحي، **معروف الرصافي** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، د.ت)، ص8.

رسائله

استطاع عبد الحميد رشودي، جامع الرسائل، أن يجمع مائة رسالة بين دفتي كتابه، وفي رسائله قيمة علمية تكشف عن ثقافته، ولا سيما في ضروب العلم والمعرفة، منها ما يتصل بعلم النحو والكلام والعقائد، ومنها ما يتصل بسياسة البلاد وأوضاعها الاجتماعية، وبث في بعض رسائله شكواه مما يكابد من جور السلطان وتنكر الزمان.[1]

ومن العلماء الذين كتب لهم: محمد كرد علي، والشيخ قاسم القيسي، وعبد القادر المغربي، وطه الراوي، وبشارة الخوري، وعبد الجليل آل جميل، ومصطفى علي. وتدلنا رسائله على حصافته وتتبعه للحقيقة، إذ كان يسأل عن بعض الوقائع التاريخية والمسائل الفقهية والكلامية، والنحوية، وعلى تواضعه حين اعترض على يونس بحري،[2] ورفض منه تلقيبه بأمير الشعراء إذ يقول: "هو ليس مني ولست منه"، لأنه يرى في هذا نوعاً من المجاملة ولاسيما أنها تصدر من عراقي.

ومن رسالة زكي مبارك نفهم هيبة الرصافي ومترلته عنده حيث يخاطبه بقوله: "يهمني أن أسجل أنك شرفتني باهتمامك بنقد هذين الكتابين"؛[3] لأن الرصافي ألف كتابه "مسائل الاعتقاد" في نقد زكي مبارك في كتابيه "النثر الفني" و"التصوف الإسلامي".

ويرى الرشودي أن الرصافي من الذين جمعوا بين صناعتي المنظوم والمنثور من خلال بلاغة أسلوبه. وتشتمل رسائله على أفكار قيمة في مجال الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي على نحو ما نجده في خطابه إلى رشيد عالي الكيلاني رئيس الوزراء، في حكومة الدفاع الوطني،[4] حيث اقترح عليه إنشاء حديقة في بغداد باسم "حديقة

---

[1] **مقدمة الرسائل**، ص4 وقد جاء الكتاب في 193 صفحة.

[2] رسائله، رقم43.

[3] رسائله، رقم82.

[4] رسائله، رقم62.

الحرية" وبناء مبنى للخطابة في وسطها يباح فيها للخطيب الكلام بحرّية في كل ما يرمي إلى الإصلاح والنفع العام، فيما عدا السياسة! وأن تجمع الخطب في كتاب يسمى "كتاب الحرية".

وتدلنا رسائله على شعوره بالضياع منذ عام 1939 وحتى وفاته عام 1945، وهو ينكر أن يكون من مشاهير الرجال، لا في العراق ولا في غيره من البلاد حيث يقول: "وإنما أنا خامل مجهول الاسم والشخصية والجنسية.. وإني بريء من كل جنسية بشرية":

دع الـــناس وانـــسبني لغيرهم إن شئت للشاء أو إن شئت للبقر

فـــإن في البـــشر الراقي بخلقته مـــن قد أنفت به أني من البشر

ويوقع بـــ"المجهول في الجاهلية الإسلامية الرصافي".[1]

ولا بأس أن نشير إلى عدد من الدراسات التي عرضت للرصافي من ناحية الفقر، فوقفت عند هذا الجانب الاجتماعي وقفة عابرة سريعة، فمنها دراسة حنا الفاخوري الذي رأى أنه لقّب بـــ"شاعر البؤساء"، وذكر أنه في قصصه التي يرويها عن الفقراء يطلب إثارة العاطفة الحزينة والشفقة على المساكين، أكثر مما يطلب الإمتاع بالسرد، وأن نجاحه تحقق عاطفياً وليس فنّياً، وهو أصدق مترجم عن آلام الشعب وأحزانه.[2]

ويرى عبد الصاحب البادرائي أن شعر الرصافي يؤكد مقولة الشاعر الفرنسي دوموسيه: "إن الأغاني البائسة أروع الأغاني".[3] أما محمد مصطفى هدارة فيرى أنه يصور مشاهد بائسة من صميم الحياة الاجتماعية الواقعية، زاخرة بالعاطفة المتأججة،[4] بينما يرى شوقي ضيف أن الرصافي كان حساساً شديد الحساسية، رقيق الشعور،

---

[1] رسائله، رقم47.

[2] الفاخوري، حنا، **الجامع في تاريخ الأدب**، ج2، ص497-500.

[3] البادرائي، عبد الصاحب، **مقدمة ديوان الرصافي**، ص خ.

[4] هدارة، محمد مصطفى، **دراسات في الأدب العربي**، ص22.

فكان لا يترك منظراً مؤثراً لمنكود أو منكوب إلا رسمه بريشته رسماً حزيناً يبعث الشجا والأسى في النفس.[1]

تشخيص الداء

أ. مشكلة الفقر

تبدأ رحلتنا مع معروف الرصافي بالتعرف على موقفه من مشكلة الفقر، وقد عرض لها في اتجاهين: اتجاه عام، تناوله في ثلاث قصائد، هي: تأثير التربية، والأمة العربية ماضيها وباقيها، ونحن والماضي.

وفي القصيدة الأولى البائية، يستهل الشاعر بمشهد ترويض الحيوانات المتوحشة من أسود وذئاب وكلاب، وكيف أن المروّضين جمعوا بينها وبين الأليف من جدي المعز، الأمر الذي دعاه إلى التدبر والتأمل والقول:

شاهدته مشهداً بدعاً علمت به أن الغرائز لم تُطْبع على الشغب
وأن خـــبث البرايا في طبائعها لابُدَّ فيه سوى الأطباع من سبب[2]

وبذلك فإن انحراف الناس عن الطريق السوي، والخلق القويم ناجم عن تأثير الظروف التي تحيط بهم، وأن التربية أساس في بناء المجتمع، والأب يتحمل مسؤوليته كاملة، وهو المستحق بأن يوصف بالعقوق قبل الابن:

إني أرى أســـوأ الآبـــاء تـــربية للابن أحرى بأن يدعى أعقَّ أب
والمـــرء كالنبت ينمو حسب تربته ولـــيس ينـــبت نبع منبت الغربِ
من عاش في الوسط الزاكي زكاخلقاً حـــتى علا في المعالي أرفع الرُّتَبِ[3]

وفي القصيدة الثانية تناول الرصافي معادلة الماضي والحاضر والمستقبل، وهي نونية

---

[1] ضيف، شوقي، **دراسات في الشعر العربي المعاصر** (مصر: دار المعارف، ط9، 1993م)، ص64.

[2] الديوان، ص70 وهي في 23 بيتاً.

[3] الديوان، ص70.

سماها: "الأمة العربية ماضيها وباقيها"، وفيها يوجه رسالته إلى الشباب، ويذكرهم بأمجاد الأمة:

والعـــرب أكـــبر أمـــة مشهورة بفـــتوحها، وعلـــومها، وبيانها
كـــم قد أقامت للعلوم مدارساً يعـــيا ذوو الإحصاء عن حسبانها
وهم الأُولَى خضعت لهم أمم الورى مِـــنْ تُـــرْكها طُـــراً إلى إسبانها
و"الروم" قد نزلت لهم عن ملكها و"الفـــرس" عما شيد من إيوانها[1]

ولا يلبث أن يصدم المسلمين بواقعهم الأليم، ويتوقف عن الأحلام الوردية الممتعة:

ثم انقضت تلك العصور فجاءها زمـــن بـــه انقادت إلى عبدانها
فنـــضت ملابسَ عزها وتثاقلت في الـــذل راســـفةً بقـــيد هوانها

لكن الشاعر إذا كان قد نظر بعين الإنصاف في تحقيق التوازن بين الماضي والحاضر، فإنه يفضح حالة الاتكال على أمجاد الآباء والأجداد، والغفلة عن الواقع الأليم، والتغافل عن المستقبل الغامض، فيفرد قصيدته الدالية في خطابهم ويختار لها عنوان "نحن والماضي"، ويتعمد تجاهل الماضي، زجراً وتقريعاً لمن اتكلوا عليه، وقد أنشدت هذه القصيدة في حفل المدرسة الثانوية، والحيدرية الابتدائية:[2]

عهـــدتك شاعر العرب المجيدا فمالـــك لا تطارحـــنا النشيدا

وبعد عشرين بيتاً، يتحدث فيها عن مهمة الشاعر في الحياة، ويعترف بفضل الأوائل وجهودهم، لكنه ينكر على الأبناء ما هم عليه ويستنهض هممهم ليقول:

أرى مـــــستقبل الأيـــــام أولى بمطمـــح مـــن يحاول أن يسودا

---

[1] الديوان، ص631 وهي في 19 بيتاً.

[2] في الديوان بتحقيق مصطفى علي، ج2، ص9 مقدمة غريبة يقول فيها: لو قيل لي: أتحب أن تحيا الأمة اليوم حياتها في عصر الرشيد والمأمون؟ لقلت: لا من غير تردد في الجواب !.. إلخ فقامت ضجة قلمية حول الخطبة والقصيدة..، وينظر الديوان، 179 وهي في 35 بيتاً.

وهـــل إن كـــان حاضرنا شقياً نـــود يكـــون ماضـــينا سعيدا
وأســـس في بـــنائك كل مجد طـــريفٍ واتـــرك المجـــد التليدا
وخـــير الناس ذو حسب قديم أقـــام بنفـــسه حـــسباً جديدا

ويختم قصيدته، بموازنة بين الحالين، وبيان علة التخلف:

وعاشـــوا ســـادةً في كل أرضٍ وعـــشنا في مواطنـــنا عبـــيداَ
إذا مَـــا الجهـــلُ خيَّم في بلاد رأيـــت أسودَها مُسِخَتْ قُرُوْداَ

ومن دعوته العامة ننتقل إلى دعوته الخاصة، إلى تشخيص الداء الوبيل الذي تغلغل في المجتمع العراقي خاصة، وفي مجتمعات العرب والمسلمين عامة، وحال بينهم وبين الرقي المادي، الأمر الذي جعل الغرب يتحكم برقاب المسلمين، ذلكم الداء هو الثالوث المتمثل بالفقر والجهل والمرض، فكيف السبيل للأخذ بأسباب من شأنها أن تستقيم بها الأمورُ ويصلح بها أمر الرعية، لأن ذوي الحل والعقد كانوا بعيدين عن الناس، وأن السياسة لم تكن بأيدي أبناء الوطن، وتبعتها السيادة كذلك... وخاض الشاعر في الخطاب السياسي خوضاً واسعاً،[1] ولكنه على المستوى الاجتماعي عرض للفقر في قصائد كثيرة، منها ثنتان بعنوان واحد هو الأغنياء والفقراء، الأولى نتفة من بيتين بقافية السين،[2] يبين فيها تجاهل الأغنياء الفقراء، فهم كالعمي لا يرون البائسين. وأما القصيدة الثانية فهي همزية، فيها دعوة صريحة للتعاون وتشجيع للغني على عدم التكبر على الفقراء، إذ هو أصبح غنياً بهم:[3]

كـــن إذا كـــنت غنـــياً راحمـــــــاً للفقـــــــراء
أنـــت لـــولاهم لمـــا أصـــ ـــــبحت بعـــض الأغنـــياء

---

[1] ينظر بحثنا: المنهج التوثيقي في دراسة الشعر، ندوة الاتجاهات الحديثة في دراسة اللغة العربية وآدابها، 9/17/ 2004م، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، فقد تناولنا القضية السياسية فيه بتفصيل.

[2] الديوان، 357.

[3] الديوان، 11 وهي في 15 بيتاً، وقد سقطت هذه القصيدة من الطبعات الأخرى.

إن أهـــل الفقـــر يـــشقو ن لأربـــــاب الثـــــراء
أغنـــياء الـــناس عاشـــوا بمـــــساعي الفقـــــراء

وفي معترك الحياة يبين اختلاف الأحوال وتبدّلها بالناس، فالدهر دائم الإغارة في ليلٍ أو نهار، ويدعو إلى التسلح بسلاح القوة، ويبين العلاقة غير المتكافئة بين الأغنياء والفقراء، وأن الغنى لا يكون بمعزل عن العلم، كذلك لا يستقيم العلم بغير الأخلاق:[1]

أرى كل ذي فقر لدى كل ذي غنى أجـــيراً لـــه مستخدماً في عقاره
يـــشد الغـــنى أزر الفتى في حياته ومـــا الفقـــر إلا مكسرٌ في فقاره
ولـــيس الغـــنى إلا غنى العلم إنه لـــنور الفـــتى يجلـــو ظلام افتقاره
فما فاسد الأخلاق بالعلم مفلحاً وإن كـــان بحـــراً زاخراً في بحاره

ولا يفوت الشاعر في قصيدة سماها "الغنى غنى النفس" أن يزرع في قلب المعسر الثقة بالنفس، والعزة، متحدثاً عن تجربته مع الناس، ومؤكّداً أن السعادة والمال يكونان قريبين من الأحمق بعيدين عن العاقل:

لا تشكُ للناس يوماً عسرة الحال وإن أدامـــتك في هـــم وبلبال
وجانب اليأس واسلك للرجا طرقاً فالدهـــر مـــا بين إدبار وإقبال
كم بات ذو الحمق خلواً في مضاجعه وبـــات ذو العقل كاسف البال
هـــذا يمـــيس بأبـــراد مفـــوفة وذا يخـــيط شظايا طمره البالي[2]

وبعد هذه اللقطات من قصائد الشاعر حول الغنى والفقر، لا بد أن نتوقف وقفة متأنية عند أهم قصيدة في الديوان سماها "الفقر والسقام"،[3] وقد سلك فيها مسلكاً مختلفاً عن قصائده المذكورة آنفاً، فقد قدم لنا ملحمة شعرية على نمط المخمسات، في واحد وخمسين مقطعاً، على سبيل السرد القصصي، وأسلوب التصوير الحواري، عن

[1] الديوان، 331.
[2] الديوان، 486.
[3] الديوان، 76.

شاب وأخته، بشير وفاطمة. ويمكن أن نقسم هذه الملحمة إلى ستة مشاهد أو ست لوحات، ومطلع القصيدة:

أي مـــضنى يمـــدها باكتـــئاب أنـــةٌ تتـــرك الحشى في التهاب
يتـــشكى والليل وحف الإهاب ضـــمن بيت جثا على الأعقاب
صفعته فمال كف الخراب

في **المشهد الأول**: بشير شاب معسر متكل على الله، شاكر لأنعمه، يعمل أجيراً، ولا أحد معه إلا أخته العانس التي تعيش معه، وما زال في كد واجتهاد ودأب متواصل حتى ظهر فيه مرض داء المفاصل، ليبدأ **المشهد الثاني** بالبيت الثامن.

استحكم المرض في بشير مع ضيق ذات اليد والجوع، لأنه لم يعد يخرج للعمل، وصار الشاب يذوب يوماً بعد آخر، ويتحول المرض إلى داء عضال في القلب، ولم يبق ما يقيم الأود إلا الدراهم القليلة التي كسبتها فاطمة أخته من الغزل، وينتقل الشاعر إلى **المشهد الثالث** بالبيت السابع عشر.

يسألها بعض الطعام، وهي تتعلل بالانتظار، فلا تجد بداً من الذهاب إلى جارتها، وإذا بها في حالة صراع بين ذل وعز، وتحضر خبزاً وتمراً وسمناً وأرزاً مما تصدق به عليها، ليسلمنا الشاعر إلى **المشهد الرابع** والبيت التاسع عشر.

ويأتي هذا المشهد طويلاً في ثلاثة عشر بيتاً، ليلة عاصفة شديدة البرق والرعد وقد اقترب أجل بشير، وهي الساعات الأخيرة، ليفتح طرفاً ويغلق آخر، عاجزاً عن رد الجواب.. ويالها من مهابة الموت.. وليس بدٌّ من الخروج، بعد أن يعجز بشير عن رد الجواب.. تخرج فاطمة في الظلام لتطرق باب جارتها "أم سلمى"، ولا تقطع ظلمة الليل الا بالدعاء، وتلبي جارتها وابنتها، وتصحبان الأخت المنكوبة، فاطمة.. ليتأكد لمن الموت ويا له من مشهد مخيف، وتمضي فاطمة ليلتها بالبكاء والنحيب.. فلما كان الصباح جاء الجيران يعزونها، وهنا نصل إلى **المشهد الخامس** الذي يبدأ بالبيت الثاني والثلاثين.. إنه مشهد يزيد الآلام ويضاعفها، ويؤجج الأحزان ويضرمها:

بشير ملقى في مكانه.. وصراخ الأخت متواصل.. ليس عندها ما يعين على تجهيز أخيها.. وما دام الأمر كذلك فهي تغسله بدموعها.. وتطلب منهم أن يدفنوه في قلبها! وعند الظهيرة يقدر أن يمر رجل نجيب فيتصدق على الميت.. ويحمل في نعش مقل، مثلما كان في حياته، وبذلك يسدل الستار ونظن أن القصة انتهت.. إلا أن الشاعر يعود ليواصل الأحداث بعد عامين من هذا الحدث، وليكون المشهد الأخير، **السادس**.

يقدر للشاعر أن يكون بين المارة في وسط العاصمة بغداد (الميدان)، وكان مهموماً مثقلاً بالأحزان، فإذا به يشاهد نعشاً محمولاً جرى الناس به مسرعين إلى الدفن.. ولا يلبث من سؤال الناس، أن يعرف أن الدفين هو أخت بشير، فاطمة.. وأنها ماتت مثله بداء القلاب.. ويختم القصيدة بالضراعة والتأمل في خواتيم الناس، وقبل أن ينهيها يقدم لنا بيت القصيد والهدف.. معادلة غريبة، الجياع يسهرون جوعاً والأغنياء ينامون رغداً، ولهم فضول أموال لم يصلوا بها إلى الفقراء حتى تنقلب عليهم تباباً يوم القيامة:

كـــم بذلتم أموالكم في الملاهي ... وركبـــتم بهـــا مـــتون السفاه
وبخلـــــتم مـــــنها بحـــــق الله ... أيهـــا الموســـرون بعض انتباه
أفتدرون أنكم في تباب

ب. الفقر والمرأة

ونشير إلى أن معظم الدراسات التي درست الرصافي وقفت عند قصائده المرتبطة بالمرأة، ومنهم إيمان يوسف بقاعي التي جعلت الفصل السادس من دراستها في "الرصافي والمرأة".[1] وأشار شوقي ضيف إلى موقف الرصافي من المرأة حيث قال: "ولم يقف عند أرامل المسلمين ويتاماهم فحسب، فقد ذهب يشارك يتامى الأرمن

[1] أم كلم، نار، **معروف الرصافي** (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص93-99.

وأراملهم بؤسهم ... وصور ذلك فأبدع في تصويره".[1]

وفى المحور الثاني من البحث، نجد المرأة مقترنة بمشهد الفقر، أو هي مستكملة لمعادلة الفقر، ولم يكن المحور السابق بعيداً عنها، فقد كانت شخصيتها حاضرة في قصيدة الفقر والسقام، بل كانت تمثل شطراً من القصيدة، وكذلك في قصيدتيه الطويلتين: "أم اليتيم"، و"اليتيم في العيد"، وكذلك في الهائية: "الأرملة المرضعة".

أفرد محقق الديوان مصطفى علي باباً بعنوان النسائيات،[2] أورد فيه سبع قصائد ليس واضحاً أساس إيرادها ولا معيار ترتيبها، وإذا أضفنا إلى هذه السبع ثنتين: هما "هوان المرأة عندنا"[3] و"المطلقة"[4] استكملنا موقف الشاعر من المرأة ومن مشكلاتها.[5]

ولا بد أن نشير إلى أن معظم هذه القصائد ترتبط بالفقر، وبعضها يأتي موضوعها مباشراً وبعض آخر غير مباشر.. ويمكن أن نصنف هذه القصائد على النحو التالي حسب المحاور الثلاثة الآتية:

أولاً: أثر المرأة في تربية الأبناء وقيادة المجتمع، وتمثله قصيدة "التربية والأمهات" قبل 1912.

ثانياً: قضية حرية المرأة في العمل والحجاب، وتمثلها أربع قصائد هي "نساؤنا" (1922)، "المرأة في الشرق" (1922/3/15)، "المرأة المسلمة" (1925/2/21)، "إلى الحجابيين"، وهي بدون تاريخ.

ثالثاً: قضية الزواج والطلاق وتمثلها أربع قصائد هي: المهجورة 1922/11/1، المطلقة، حرية الزواج عندنا، هوان المرأة عندنا، والثلاث الأخيرة بدون تاريخ.

---

[1] ضيف، **دراسات في الشعر العربي المعاصر**، ص66.

[2] **ديوان الرصافي**، تحقيق مصطفى علي، ج2، ص332-368.

[3] المصدر نفسه، ج5، ص449، كذلك الديوان، ص401.

[4] المصدر نفسه، ص107.

[5] كذلك يمكن أن تضاف إلى هذا المقام قصيدتان واحدة بعنوان ثالثة الأثافي، والثانية بعنوان أم الطفل في مشهد الحريق، الديوان، ص164، ص496.

وينبغي أن نتذكر هنا أننا أمام خواطر شاعر وتأملات إنسان، ولسنا أمام مؤرخ للأحداث ينقلها، ويجتهد في التزام الصدق في روايتها، كذلك، لا نتعامل مع عالم اجتماع أو سياسة أو عالم شريعة كي يتحمل مسؤولية علمية في معالجة قضية تكاثرت عليها الأقلام، وتباينت فيها وجهات النظر، والذي نجده في هذه القصائد هو صورة لما كان يضطرب من آراء في ذلك الزمن، وأن الشاعر بدافع الغيرة على الوطن والأمة وأبناء جلدته، حاول أن يقدم وجهة نظره.. وليس بالضرورة أن يكون مصيباً في كل ما قدم من آراء، فقد أصاب إلى حد كبير في دعوته إلى تربية المرأة وتعليمها.. والنظر إليها بعين المساواة مع الرجل في هذا الحق، كما أصاب في محاولته الفصل في التعامل مع المرأة، مما هو نتاج العادات والتقاليد الاجتماعية، وما هو مما نصت عليه الشريعة.. مع بعض الشطحات التي سنشير إليها في مواضعها.

وتتجلى القيمة في أشعار الرصافي، في الجانب الفني الذي كانت تحتفي به، والصور الشعرية التي استخدمها الشاعر في تصوير الحالة الاجتماعية، ومدى قدرته في هذا الأداء، ومدى تحقيقه الهدف من ذلك، ونستهل حديثنا عن **المحور الأول**، وتائيته: التربية والأمهات، وتعداد أبياتها ثلاثة وخمسون بيتاً فهي من أطول قصائد هذا الباب، وكذلك من أقدم قصائده فيه.. ومطلعها:

هـــي الأخلاق تنبت كالنبات إذا ســـقيت بمـــاء المكرمات[1]

وعلى الرغم من أن القصيدة لا ترقى إلى مستوى فني رفيع، فيمكننا أن نعدها أفضل قصائده في البعد التربوي الذي عرض له الشاعر، وقد دارت القصيدة على تأكيد مهمة المرأة وأثرها في تربية الأبناء، وغرس الأخلاق الرفيعة:

فحـــضن الأم مدرسة تسامت بتـــربية البـــنين أو البـــنات
وأخـــلاق الولـــيد تقاس حسناً بـــأخلاق النـــساء الـــوالدات
لأخـــلاق الولـــيد بك انعكاس كمـــا انعكس الخيال على المرآة

[1] الديوان، 131، وهي من بحر الوافر.

ويشير الرصافي إلى أدلة من التاريخ الإسلامي، فتلك أم المؤمنين عائشة، وعدد من الكاتبات والشواعر المجاهدات اللائي خرجن إلى الجهاد:

وعلمهـــا "الـــنبي" أجـــلَّ علم فكانـــت مـــن أجـــلِّ العالمات
لـــذا قـــال: "ارجعوا أبداً إليها بثلثـــي ديـــنكم ذي البينات"
فمـــاذا الـــيوم ضـــرَّ لو التفتنا إلى إســـلامنا بعـــض الـــتفات

وأشار في مستهل قصيدته إلى أن كثيراً مما يعامل به المجتمع مع المرأة، قائم على أساس العادات، التي لا ترتبط بالشريعة، فهو يشكو إلى أم المؤمنين منها:

أؤم المؤمـــنين إلـــيك نـــشكو مـــصيبتنا بجهـــل المؤمـــنات
تخـــذنا بعـــدك العادات ديناً فأشـــقى المـــسلمون المسلمات

إلا أن صلة القصيدة بالفقر واهية، وقد عرض الشاعر للحجاب، وجعله الطرف الثاني للمعادلة، في مقابل الجهل! ولم يجد بأساً في كشف العفيفة وجهها بين قوم أعفّاء:

حجبـــناهن عـــن طلب المعالي فعِـــشْنَ بجهلـــهن مهـــتكات
ومـــا ضَرَّ العفيفةَ كشفُ وجهٍ بـــدا بـــين الأعفّـــاء الأُبـــاة

وللشاعر قصيدة طويلة رائعة في محاربة العادات السيئة من قافية التاء، يؤكد فيها ضرورة الخروج عليها إذا كانت باطلاً يخضع لها كثيرون في الإتيان بالمنكرات، ومنها شرب الخمر وتعاطي الدخان،[1] ولا يطعن في دعوته الصريحة هذه كونه اضطر لبيع الدخان في آخر حياته، إذ إنه كان مغلوباً على أمره فيها، على نحو ما جاء سياق

[1] الديوان، 128 ومنها قوله:

كـــل ابـــن آدم مقهور بعادات لهـــن يـــنقاد في كل الإرادات
لـــو لم تكن هذه العادات قاهرة لمـــا أسيغت بحال بنت حانات
ولا رأيـــت ســـكارات يدخنها قـــوم بوقت انفراد واجتماعات
عناكب الجهل كم ألقت بأدمغة مـــن الأنام نسيجا من خرافات
فحـــرموا وأحلوا حسب عادتهم وشـــوهوا وجه أحكام الديانات
الحـــر من خرق العادات منتهجا نهج الصواب ولو ضد الجماعات

الخبر. وكما يروي نجدة فتحي صفوة أنه في أوائل الثلاثينيات كان مكبا على شهواته،[1] وهذا يدل على فشله اجتماعياً قياساً بمعاصره جميل صدقي الزهاوي، الذي كان فاشلاً سياسياً يهادن الاستعمار والحكام.

وفي **المحور الثاني**: حرية المرأة في العمل والحجاب، نتوقف عند قصيدتين في اتجاه واحد هما: "نساؤنا" و"إلى الحجابيين"، وكلتاهما ترتبطان بامرأتين داعيتين إلى تحرر النساء الأولى هي بنت فندي صعب والثانية نظيرة زين الدين، فابنة أفندي صعب قد دعاه أبوها إلى بيته واجتمع بكريمته، في بيروت 1922 في طريقه إلى الآستانة وبعد وصوله إليها أرسل قصيدته ومطلعها:

ألا خلياني في الكلام من السجع ولا تجريا في القول إلا على الطبع[2]

ويرى فيها جوراً على المرأة، ناجماً عن العادات المستحكمة، ويثني على جهود المرأة في مجلتها ويقول:

فقد جار في الأرض البسيطة خلقُه على خلقه جوراً إلى الحزن يستدعي
وذلـــك إنـــا لا تـــزال نساؤنا تعيش بجهل وانفصال عن الجمع
وأكـــبر ما أشكو من القوم أنهم يعدون تشديد الحجاب من الشرع
ألا فاصدعي ياربة "الخدر" بالذي ترين من الآراء في الرد والردع

فهل ينكر الشاعر الحجاب جملة وتفصيلاً؟ واضح أنه ينكر ما يتبع الحجاب في تعطيل المرأة عن التعليم والتفاعل مع المجتمع، ولكن إلى أي مدى يمكن أن يكون التشديد في الحجاب مخالفاً للشرع؟ هكذا يبدو أن الاتجاهات التي أرادت أن تحول دون الحجاب، صوّرته عائقاً دون العلم أو التفاعل مع المجتمع.. ولكن الواقع أثبت غير ذلك.

---

[1] الواعظ، **معروف الرصافي**، ص35-42، وقد علق المؤلف بقوله:"ويظلم من يقيد عليه مثل هذه الحال".

[2] الديوان، 385، ويغالي الشاعر ويبلغ الأمر به أن نظرته إلى تحرير المرأة تتجاوز ما يحتج به من الدين !وذلك في قوله:

أمزق دعواهم إذا ما طعنتها ولو إنها كانت من الدين في درع

وتأتي النونية في خطاب نظيرة زين الدين التي أهدت إليه كتابها "الحجاب والسفور" بنفس قصير في اثني عشر بيتاً.[1] وفي هذا الاتجاه تأتي قصيدتان، همزية طويلة، وميمية متوسطة.. سمى الأولى "المرأة في الشرق"، وهو ينحي فيها باللائمة على العادات والتقاليد، وما عليه المرأة من اعتزال لشؤون الحياة، وفيها يعالج قضية ظهور المرأة على المسرح، وتمثيل الرجال لأدوار النساء، وذلك قبل أن تشارك المرأة العراقية في التمثيل:

لقد حكموا العادات حتى غدت ... لهم بمنزلة الأقياد للأسراء
لقد غمطوا حق النساء فشددوا ... عليهن في حبس وطول ثواء
وقد زعموا أن ليس يصلحن في الدنى ... لغير قرار في البيوت وباء[2]

ويتحدث الرصافي عن وضعية المرأة على أساس أنها تمثل داء الشرق، وأن سبب هذا الداء كبراؤه، ويرمي الشاعر مخالفيه بالجهل.. ويختم القصيدة مخاطباً الشباب مستنهضاً هممهم وهو خطاب يتكرر في الكثير من قصائده:

ألا يا شبابَ القوم إني إلى العلا ... لداع فهل من يستجيب دعائي
فقد بُحَّ صوتي، واستشاطت جوانحي، ... وقل اصطباري واستطال بكائي

وأما قصيدته الميمية فقد سماها باسم "المرأة المسلمة"، وفيها يتحدث عن المرأة بالصيغة التي خاطب بها ربة الخدر، وما أصابها من ظلم. وقد لاحظنا تأكيده لضرورة تعليم المرأة في القصائد السابقة، وفي هذه يتكرر هذا المفهوم، ولكن القصيدة تعرض لجانب الفقر عند المرأة في أكثر أبياتها، وقد حيل بينها وبين طلب الرزق، ولا سيما من فقدت بعلها:

لم أر بين الناس ذا مظلمة ... أحقَّ بالرحمة من مسلمة
قد جعلوا الجهل صواناً لها ... من كل ما يدعو إلى المأثمة

---

[1] الديوان، 616.

[2] الديوان، 14.

قـــد لوحت نار الطوى وجهها وأعمـــل الفقـــر بـــه ميسمه
فانقطعـــت في العـــيش أسبابها وأصـــبحت للبؤس مستسلمة
فهـــل بكـــم مـــن راحم للنسا فهـــن أولى الـــناس بالمرحمة[1]

وننتقل إلى **المحور الثالث** الذي يتناول قضية حيوية جداً ترتبط بالفقر والمرأة، وهي الزواج والطلاق، وقد جمعهما معاً في مقطعة من خمسة أبيات، جاءت في باب المقطعات:

مـــا أهون الأنثى على ذكراننا فلقـــد شجاني ذلُّها وخضوعُها
فولـــيُّها عـــند الـــزواج يبيعها وحلـــيلها عند الطلاق يضيعها
وكلاهمـــا مـــتحكمٌ في أمرها هـــذا يعـــريها وذاك يجـــيعها[2]

والأبيات صورة لما كان جارياً من ظلم المرأة، وعدم تكريمها، سواء من الولي أو الزوج، ولكن الشاعر يعالج القضية بتفصيل أكثر في قصائده الثلاث الأخرى، فيتناول الزواجَ في قصيدته البائية الموسومة "حرية الزواج عندنا"، وهي تمثل حالة شاعت في عدد من المجتمعات الإسلامية، بتحكم الولي في تزويج ابنته، طمعاً في المهر الذي يسلم له، ويعالج المغالاة في المهور معالجة إسلامية سليمة، مؤكداً أن قوام الأسرة في المحبة والتحابب:

ظلمـــوك أيـــتها الفتاة بجهلهم إذ أكرهوك على الزواج بأشيبا
طمعوا بوفر المال منه فأخجلوا بفـــضول هاتيك المطامع أشْعَبَا
خـــير النـــساء أقلُّهـــا لخطيبها مهـــراً، وأكثـــرها إلـــيه تحببا[3]

وفي البيت السابق يضمن معنى عدد من الأحاديث التي تحث على تقليل المهور، وتؤكد الحب أساساً للحياة الزوجية، ويقرن أسباب نهضة الأمة الإسلامية بتعليم المرأة وتهذيبها:

هـــل يعلـــم الشرقيُّ أن حياته تعلـــو إذا ربَّـــى البنات وهذّبَا
فـــإذا ادعـــيتَ تقدُّماً لرجاله جـــاء التأخـــرُ في النساء مكذِّبَا

---

[1] الديوان، 564.

[2] الديوان، 401 وفي الديوان تحقيق مصطفى علي، ج5، ص449.

[3] الديوان، 46.

مِنْ أين ينهض قائماً مَنْ نصفُه يـــشكو الـــسقامَ بفالج متوصِّبَا

وأما الطلاق فيفرد فيه قصيدة يسميها "المطلقة"، وهي ثاني أطول قصيدة في هذا الباب –وإن كانت قد جاءت في باب الاجتماعيات– وهي تلحق بالقصيدة الأولى التي تحدثنا عنها (التربية والأمهات) من هذه الناحية، ومطلع القصيدة:

بدت كالشمس يحضنها الغروب فـــتاةٌ راع نظـــرتَها الشحوبُ

ولا يسعفنا محققُ الديوان بإضاءة حول ظروف القصيدة أو مناسبتها، ونجد معروفاً ينهج منهج قصائده السردية المطولة التي تقدمت: "الفقر والسقام"، و"اليتيم في العيد"، و"أم اليتيم"، ويخوض التجربة الشعرية بكل تفاصيلها، جلها ودقها.. ويختار الحوار وسيلة لسرد الأحداث بين نجيب ونجيبة، في أربعة مشاهد، يأتي **المشهد الأول** ليقدم صورة الشابة المطلقة، فهي على قدر من الجمال، ولكن المصيبة ظهرت أثارُها، في تسعة أبيات يخلص في آخرها إلى القول:

ألا إن الجمـــــال إذا عـــــلاه نقـــابُ الحـــزن منظرُه عجيبُ

وفي **المشهد الثاني** يقدم لنا زوجَها على أنه من أصل طيب، رعى زوجته كما رعته وتوطدت بينهما الأواصر، وتوثق حبل المودة بينهما، ولكن حصل خلاف بين الزوج وبعض أصدقائه فأقسم بالطلاق على ذلك وهو في ساعة غضب، ووصل الأمر لذوي الفتيا فأفتوا بذلك، وليس في الأمر حيلة:

وطلقهـــا علـــى جهـــل ثلاثاً كـــذلك يجهل الرجلُ الغضوبُ

لمـــاذا يا "نجيب" صرمت حبلي وهـــل أذنبت عندك يا "نجيب"

أبـــن ذنـــبي إلي فدتك نفسي فـــإني عـــنه بعدئـــذٍ أتـــوبُ

ويبين أثر هذه الفتوى التي أفتي بها على زوجته المسكينة البريئة "نجيبة" في سبعة أبيات، ولا يلبث في **المشهد الثالث** أن يعترف الزوج بخطئه، ويبثها مشاعر مماثلة منه لما أدركه من فراقها:

فأطـــرق رأســـه خجلاً وأغضى وقـــال ودمـــع عينيه سكوبُ:
"نجيـــبة" أقـــصري عـــني فإني كفـــاني من لظى الندم اللهيبُ

ويختم هذه المأساة بتقديم العلاج بمناقشة الموضوع مناقشة شرعية بحيث يبين أن هذه الفتيا هي لسبب الغلو والمبالغة في إنفاذ الحكم الشرعي، مع أن الله أراد التيسير للعباد، ويورد رأي الفقيه ابن القيم في كتابه "أعلام الموقعين" ومخالفته في موضوع وقوع الطلاق لآراء الفقهاء:

أراد الله تيـــــسيراً وأنـــــتم مـــن التعـــسير عندكم ضروب
فـــذا ابن القيم الفقهاء كم قد دعـــاهم للـــصواب فلم يجيبوا

وهكذا يسدل الستار على هذه المأساة باختيار الفتاوى التي تراعي مصالح المسلمين.

وأما قصيدته الرابعة في هذا الموضوع فهي رائية تحمل اسمين، "المهجورة" و"مشهد الحسن في الحزن"، وقد عالج فيها مشكلة أخرى، كثيراً ما تقع بين زوجين، وهي الهجر، وقصّ لنا قصة امرأة من بيروت، وقعت تحت طائلة هذه المشكلة، وبيّن الآثار النفسية السلبية التي تركها هذا الهجر، ومنها قوله:

لـــك الخير من حر يسائل حرة شكت هجر بعل لم يكن بالفتى الحر
فقلـــت: أمـــا والله لو أن لي يداً على كل حكم جاء من ظالم الدهر
لشدّدت في زجر المحبين إن جفوا وعاقبت منهم من يميل إلى الهجر[1]

ج. الفقر والطفولة

وترتبط ظاهرة الفقر في شعر معروف الرصافي في كثير من قصائده بالأطفال اليتامى، تسع قصائد في الديوان، جاءت مفرقة بين أبوابه وأذكرها مرتبة تاريخياً: "أم

[1] الديوان، 273.

اليتيم"، و"اليتيم في العيد"، وهما بدون تاريخ، و"اليتيم المخدوع" (1907)، "دار الأيتام" (1920)، و"الإحسان" (1928)، و"الحياة الاجتماعية والتعاون" (1928)، و"الأرملة المرضعة" (1929)، و"وقفة عند مستشفى الأطفال" (1934)، و"إلى حماة الاطفال" (1944).

لكأن الشاعر بهذه القصائد صاحب ديوان اليتيم.. ولا أعرف شاعراً في العصر الحديث – على حد علمي – كانت له مثل هذه العناية بهذا الموضوع، كذلك لا أكاد أجد شاعراً يستغرق هذا المعنى، ويتوقف عند اليتيم هذه الوقفة المتأنية التي تكشف عن بواطن مشاعره، على نحو ما أجد في قصيدتيه "اليتيم في العيد" إذ جاءت في ثلاثة وثمانين بيتاً، و"أم اليتيم" في ستة وخمسين بيتاً، فهل عاش معروف الرصافي حياة اليتم؟ لعل حياته كانت شبيهة بذلك! نعم، فقد كان أبوه كثير التنقل، ولا يحضر في البيت إلا قليلاً، فانعكست هذه الحياة بهذا الأثر الإيجابي حباً للأيتام وقرباً منهم، كذلك لم يقدر لمعروف أن يرزق ابناً من زوجته، فأصبح الأطفال أحبة إلى قلبه، وهو الشاعر ذو العواطف والمشاعر الرهيفة.

ولنتوقف عند قصيدتيه اللتين تتصدران هذا الاتجاه، الأولى العينية، الطويلة، وهي بعنوان "اليتيم في العيد" ومطلعها:

أطلَّ صباحُ العيد في الشرق يسمع ضجيجاً به الأفراحُ تمضي وترجع[1]

وهي تروي قصة صبي يتيم لفت نظر الشاعر، إذ إنه يخرج في عيد الأضحى، لينقل لنا صور الحزن لا صور الفرح:

ألا لـــيت يوم العيد لا كان إنه يجـــدد للمحزون حزناً فيجزع
صـــباح به يكسو الغني وليده ثـــياباً لهـــا يبكي اليتيم المضيع
يـــرينا ســـروراً بين حزن وإنما بـــه الحزن جد والسرور تصنع

[1] الديوان، 294.

وبعد أن يصف مشاهد متناقضة في العيد، متنقلاً بين الناس في **المشهد الأول**، نجده في **المشهد الثاني** أمام صبي يجعله يجيل الطرف فيه، ويستغرق في وصفه اثني عشر بيتاً ليحدد لنا شجونه، وكآبته وفقره، ووجومه وحسرته، ومَنْ حوله لا يهتمون به على أن كسوته لا تكاد تقيه البرد:

علـــيه دريس يعصر اليتم ردنه فيقطـــر فقرٌ من حواشيه مدقع
يلـــيح بـــوجه للكآبـــة فوقه غـــبار به هبت من اليتم زعزع
يـــرد ابتـــسام الواقفين بحسرة تكـــاد لـــه أحـــشاؤه تتقطع
لـــه رجفـــة تنتابه وهو واقف على جانب والجو بالبرد يلسع

وينتقل الشاعر إلى **المشهد الثالث** ليتقرب إلى اليتيم، ويعطف عليه، ويقترب من بيته:

أيا ابن أخي من أنت؟ ما اسمك؟ ما الذي عراك؟ فلم تفرح فهل أنت موجع
سمعـــت بكـــاء ذا نـــشيج مردد تكـــاد لـــه صـــمُّ الصفا تتصدع

ويستغرق الشاعر تفصيلات هذه التجربة وأحداثَها بكل جوانبها، إذ لا يتوقف حتى يجد سبيلاً إلى بيت اليتيم لتتمثل له صورةٌ من صور الفقر في المجتمع العراقي، وكيف أن الموت كان يحصد أبناء الأسرة فلا يجدون من يعيلهم، فبعد أن يموت الأب، يتولى خال الولد كفالته، لكن الدهر لا يمهله إذ يزج بالسجن، ويخاطب جدته، ويجد عفتها عن السؤال:

أبـــوزع مُنّي عَمرُك الله بالذي ســـئلت فقد كادت حشاي تمزّع
ولكـــن غـــدر الحاقدين رمى به إلى السجن فهو اليوم في السجن مودع
فحـــق لـــسلمى أن تـــنوح فإنها مـــن العـــيش سمـــاً ناقعاً تتجرع

وفي **المشهد الأخير** يعود الشاعر بعد أن تألم لهذه القصة، ليحدث أصحابه ليثوروا على الظلم، وحكم الجائرين:

فعـــدت وقلـــبي جازعٌ متوجِّعٌ وقلـــت وعيني ثرة الدمع تهمع

فمـــا بالنا نستقبل الضيم بالرضا ونعـــنو لحكم الجائرين ونخضع
ألا فاكتبوا صكّ النهوض إلى العلا فـــإني علـــى مـــوتي به لموقّع

وبعد هذه الرحلة الطويلة مع اليتيم في العيد، ننتقل إلى قصيدته الثانية التي تصور مأساة عنيفة أخرى عن أم اليتيم، وهي كسابقتها مترعة بالعواطف والمشاعر، يجسم لنا فيها هذه المشكلة الاجتماعية، ومطلع القصيدة:

رمـــت مسمعي ليلاً بأنّة مؤلم وألقت فؤادي بين أنياب ضيغم[1]

وتنحو القصيدةُ إلى السرد القصصي مثل سابقتها، لكنها تختلف في التفاصيل، ومنها الأسباب التي رمّلت هذه المرأة، لقد استمع الشاعر في **المشهد الأول** من قصيدته إلى أنين تأثر له، على نحو ما استوقفه الطفل في العيد، فإن البكاء الذي استمع إليه في الليل أرّقه حتى الصباح:

إذا بعـــثت لي أنّـــةً عن توجع بعـــثت إلـــيها أنـــةً عن ترحُّمِ
أرى فحمة الظلمات عند أنينها فأعجـــب منها كيف لا تتضرم

فهو لا يدع الأمر، ويحزن على ما سمع ثم ينسى، بل نجده في **المشهد الثاني** أمام بيت صاحبة الأنين، يتعرف على قصتها، ويسجل هذه القصة لأصحاب الضمائر الحية:

دخلت به عند الصباح على التي سقاني بكاها في الدجى كأس علقم
لقد جثمت فوق التراب وحولها صـــغيرٌ لهـــا يرنو بعيني ميتّم
وأكـــبر ما يدعو القلوبَ للأسى بكـــاءُ يتـــيم جائـــعٍ حول أيم

وفي **المشهد الثالث**، يخبرنا أنها أيم، وأن الصغير ابنها، وأنها في حالة ذهول يدل على ذلك تواصل بكائها وتبسمها:

ولما تناهت في البكاء تضاحكت من اليأس ضحك الهازئ المتهكّم
فلـــم أر عيناً قبلها سال دمعها بكـــاءً وفـــيها نظـــرةُ المتبسِّمِ

[1] الديوان، 531.

وفي **المشهد الرابع** تضم الأم ابنها النحيف، ويجعل هذا الطفل يسأل أمه أن تسأل الشاعر عن مصير أبيه، ولا تلبث المرأة أن تقص قصة زوجها الذي خرج من أرمينيا في الحرب التركية الأرمنية، وأنها عزمت على الخروج لولا ابنها، ويختم الشاعر قصيدته في **المشهد الخامس**، لنعرف أن اليتيم في هذه القصيدة مختلف عن القصيدة العينية، وأن الشاعر يتعاطف بمشاعره الإنسانية مع المسلمين وغيرهم من الفقراء والأيتام:

فلـــيس بـــدين كلُّ ما يفعلونه ولكـــنه جهـــلٌ وســـوء تفهُّمِ
لئن ملؤوا الأرض الفضاء جرائماً فهم أجرموا، والدين ليس بمجرِمِ

ولا شك أن الحروب الطاحنة، سواء كانت عرقية أم دينية، كانت ولما تزال سبباً مباشراً في تدمير ثروات المسلمين، وانتشار الفقر بين الناس. والميمية السابقة هي التي أبدى شوقي ضيف إعجابه بجانبها الانساني، كما تقدم بنا آنفاً.

وأقدم عهد له بالأيتام حين رثى "نعيما"[1] سنة 1907، ولكنه برع في تسجيل مأثرة "شنلر" الذي بنى داراً للأيتام في القدس زارها الشاعر سنة 1920، فكانت هذه الميمية:

لـــدار "شنلر" في القدس فضلٌ بـــه تَنْـــسَى تَيـــتُّمها اليتامى[2]

ويبين أثر هذه الدار في إيواء الأطفال الفقراء وتنشئتهم:

ويحمـــده مـــن الفقـــراء طفلٌ يـــذم لفقـــد والـــده الحماما
ويدخلـــها يتـــيم القـــوم طفلاً فتخـــرجه لـــه يفعـــاً غلامـــا
وقـــد لـــبس الفضيلةَ وارتداها وشـــد علـــيه من حزمٍ حِزَاما

---

[1] الديوان، 562، وقد ذكر محقق الديوان أنه يتيم جئ به من حلب وتشير القصيدة إلى أنه قتل في بغداد، وأن قاتله اسمه سليم.. وقد أرخ في آخر بيت لموته سنة 1325هـ.

[2] الديوان، 522 وهي في 31 بيتاً.

ولشدة العناية بهذه الدار أصبحت نموذجاً يتمنى:

وكـــاد إذا رأى مغـــناك راءٍ يـــود بـــأن يكون من اليتامى!

ويسوق بعض المعاني المرتبطة بالنصارى، إذ ترد كلمة "المسيح" في ثلاثة أبيات، فلعل المدرسة كانت لأيتام النصارى.. وفي هذا المنحى نجد إشادة بثري يهودي، مناحيم دانيال، ينفق على بناء مدرسة للأيتام للجمعية الخيرية الإسلامية سنة 1928، وهو بهذه الإشادة يستجيش المحسنين لأمثال هذا العمل، ويؤكد أهمية الإحسان في قصيدة تحمل هذا الاسم:

لـــو كـــنتُ أعبدُ في ذي الدنا لعـــبدت من دون الإله المُحْسِناَ

أومـــا أمرنا من عظات كتابنا بالعـــدل والإحسان أن نتدينا[1]

وتقترن بقية قصائده بجمعية حماية الأطفال، منذ عام 1928 وحتى قبيل وفاته بعام واحد سنة 1944. وفيها نقف على الحياة الاجتماعية والتعاون، وقد أنشدها في حفل جمعية حماية الأطفال سنة 1928 وفيها يقول:[2]

ولم يـــصلح فـــسادُ الناس إلا بمـــالٍ مـــن مكاسبهم مشاعِ

تـــشاد بـــه الملاجـــئُ لليتامى وتمـــتار المطـــاعمُ للجـــياعِ

وتُـــبْنى للعلـــوم بـــه مـــبانٍ تفـــيض العلـــم مؤتلق الشُّعاعِ

إذا لم يُعْـــنَ بالأطفـــال قـــومٌ فهـــضبة مجدهم رَهْنُ انصداعِ

ومن ذلك قصيدة "الأرملة المرضعة" التي أنشدها في مناسبة مماثلة 1929/1/11،[3] وهي تأتي من عيون الشعر العربي، في الوصف الدقيق للمشاعر الإنسانية النبيلة، في إعانة الضعفاء والتربية الخلقية العاطفية، ولن يتسنى للقارئ إدراك مستواها الفني قبل

---

[1] الديوان، 578 وهي في 26 بيتاً، في البيت الثاني إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى...﴾ (النحل: 90).

[2] الديوان، 389 وهي في 26 بيتاً.

[3] الديوان، 633 وهي في 37 بيتا.

أن يقرأها كاملة:

لقيـــتها ليـــتني مـــا كنت ألقاها تمـــشي وقد أثقل الإملاقُ ممشاها
بكت من الفقر، فاحمرّت مدامعُها واصفر كالورس من جوع محيَّاها
المـــوتُ أفجعها والفقرُ أوجعها والهـــمُّ أنحلـــها، والغـــمُّ أضناها
تمـــشي وتحمل باليسرى وليدتها حملاً على الصدر محمولاً بيمناها

ومغزى القصيدة، تأكيد أهمية الإحسان، والأثر النفسي في مساعدة الغني الفقير، فهو بعد أن يفصل في وصف مشهد الفقر في الأم وابنتها الرضيعة، ينقل لنا عواطف الأم إزاء مساعدته لها:

لو عم في الناس حسٌّ مثلُ حسك لي مـــا تاه في فلوات القفر مَنْ تاها
أو كان في الناس إنصافٌ ومرحمة لم تـــشك أرملـــة ضنكاً بدنياها

وفي همزيته "وقفة عند مستشفى الأطفال" يؤكد مفهوم القصيدة المتقدمة، لا عن طريق التصوير وتسجيل الصور الحية للأرملة أو اليتيم، ولكن بأسلوب يعتمد المباشرة، فكأنه يقف عند بناء مسجد، أو مكان مقدس إذ يقف عند بناء المستشفى! ويبين أن مستقبل الأمة مرهون بالأطفال يقول:

أي قـــدس يـــضم هذا البناء! حـــسدت أرضـــه عليه السماء
ومن اللؤم أن نرى عندنا الأطـــ ـــفـــال تفـــنى لأنهـــم فقـــراء
عل ميتاً لو عاش منهم لأضحى فـــيه للـــناس مأمـــل ورجاء
ربَّ مـــن مات منهم مات معه شـــرف بـــاذخ لـــنا وعلاء[1]

ويختم قصيدته بالثناء والشكر لمن تطوع في بنائه وأنفق.

وتتجلى واضحةً، رسالة الشاعر في الحياة من مناسبة القصيدة التي اقترنت بقصيدته اللامية "إلى حماة الأطفال" وقد أنشدها سنة 1944؛ لأن جمعية حماية الأطفال

[1] الديوان، 28 وهي في 34 بيتاً.

أرادت أن تجمع إعانات لتشييد دار أوسع، فكانت القصيدة التي يبين فيها أهمية المستشفيات للأطفال، ويثني على المحسنين المتبرعين لبنائها:

دار الـــسلام تفاخرت برجال قامـــوا بأمـــر حمايـــة الأطفال
لله تلـــك الـــدار مِـــنْ مُتَـــبَوَّأ بـــذَّ الـــنجوم بقدرة المتعالي[1]

ويتمنى أن يكون واحداً من المسهمين:

لو أن ذات يدي استطاعت رفدكم مـــا فاق نول "الرافدين" نوالي
فإلـــيكمو هـــذا الثـــناء مخلداً مِـــنْ مادحٍ في المدح غيرُ مغال

والقصيدة تبين لنا تواصل دعوة الشاعر لحوالي أربعين عاماً في هذا الاتجاه، وتأكيده أهمية العناية بالطفل، وتهيئة أسباب الصحة له، وقد سجل لنا موقفه المتصل ذاك من عام 1907 إلى عام 1944.

الحلول والعلاج

وبعد أن توقفنا عند تشخيص الداء في ثلاثية الفقر والمرأة والطفولة، ننتقل الآن إلى ما قدمه الشاعر من وصف للدواء وعلاج للداء، من أجل القضاء على المرض العضال الذي أطال الشاعر الوقوف عنده، ويتجلى هذا العلاج في ثلاث صور، هي:

1. الدعوة إلى الأخذ بأسباب العلم وأساليبه الحديثة مع السيادة والأخلاق.
2. خطاب الأغنياء والأقوياء للإصلاح في مجال الزراعة والاقتصاد.
3. خطاب الشباب والدعوة لاستنهاض الأمة وبناء مستقبلها.

وتتوافر الشواهد على هذه الاتجاهات الثلاثة في ديوانه وقد أفرد لكل منها ساحة واسعة ورقعة عريضة ويمكننا أن نقدم عناوين القصائد التي عالجت الاتجاه **الأول** مع عدد أبياتها، والمناسبة، ومعظمها يرتبط بمناسبات حرص الشاعر على حضورها، مثل

[1] الديوان، تحقيق مصطفى علي، ج2، ص304 وكذلك الديوان، 487.

افتتاح المدارس، أو المعاهد العلمية واستقبال الوفود، وذلك على النحو الآتي:[1]

- إلى أبناء المدارس: 33 في مدرسة النجاة بالبصرة
- المدارس ونهجها: 31 افتتاح مدرسة التفيض ببغداد 1929
- العلم والإجازة فيه: 32 توزيع الشهادات في مدرسة الأمريكان
- الكلية الإنكليزية: 36 حفل أقامته الكلية بالقدس
- في المدرسة: 26 تكريم الملك فيصل 1921
- في المعهد العلمي: 30 افتتاح المعهد العلمي 1921
- العلم والعلم: 35 لم تذكر المناسبة
- السجايا فوق العلم والعلم: 47 لم تذكر المناسبة

وليست هذه القصائد وحدها التي ترتبط بدعوة الشاعر إلى العلم، بل إن هذه الدعوة قد وجدت طريقها في مواطن كثيرة من قصائده الأخرى، لأن هذه الدعوة أشربها الرصافي وملكت عليه قلبه وعقله، ولذلك فلا تكاد قصيدة تعرض لمشكلة من مشكلات المجتمع إلا ونجد الشاعر يؤكد فيها ضرورة الأخذ بأسباب العلم.

ولعل من أفضل الأبيات ذات الدلالة المباشرة في هذا المجال، على طريق تحقيق أهداف الشاعر للقضاء على الفقر، قصيدته الدالية التي جاءت بعنوان "في المعهد العلمي"، وفيها يقول:

يقولون لي استنهض إلى العلم قومنا بشعر معانيه تقيم وتقعد
أما علموا أن الحياة بعصرنا مدارس في كل البلاد تشيد
فيا قومنا إن العلوم تجددت فإن كنتم تهوونها فتجددوا
وخلوا جمود العقل في أمر دينكم فإن جمود العقل للدين مفسد

[1] نشير إلى قصائد أخرى تستكمل هذا الاتجاه وهي: ميت الأحياء وحي الأموات، 21 بيتاً، يقظة الشرق، 20 بيتاً، إلى المتعلم، 19 بيتاً، منزلة المتعلم، 8 أبيات، المكتب، 9 أبيات، ينظر الديوان، 207، 184، 527، 96، 553.

وإن شئتم في العيش عزاً فأقدموا فكـــم نيل بالإقدام عز وسؤدد[1]

وتتقدم قصيدتاه الميميتان، العلم والعلم، والسجايا فوق العلم والعلم، في تقديم المعادلة الحضارية للنهوض بالأمة، وفي الأولى يصرح بأن مقومات الدولة تقوم على العلم والسيادة:

أمـــا المعـــزّان في الدنيا فإنهما همـــا على ما أراه العلم والعمل
كلاهمـــا ضامن للناس حرمتهم هـــذا له الحكم أو هذا له الحكم
فـــالعلم في أمة ليست بحاكمة كالسيف يحمله في الحرب منهزم[2]

وفي قصيدته الثانية يستدرك على الأولى ويكمل المعادلة ويبين أن العلم والسيادة لا يمكن أن تقوم لهما قائمة دون الأخلاق:

علـــم يعـــززه مـــن دولة علم في كل عصر به قد سادت الأممُ
ودولـــة القوم لم تثبت قواعدها إلا بـــأن ســـجاياهم لهـــا دعمُ
وليس يختل حبلُ الملك مضطرباً إلا إذا اختلت الأخلاق والشيمُ[3]

ويشخص الشاعر بعضَ العلل السائدة التي أدت إلى تأخر المسلمين فيقول في القصيدة نفسها:

داء التأخـــر مـــنا في خلائقنا فقد فشا الداء حتى استفحل السقم
حـــرية الفكـــر فينا غير جائزة والحـــر مـــنا مهان ليس يحترم

وفي الاتجاه **الثاني** نجد أن الشاعر يؤكد أهمية المال في بناء الاقتصاد وذلك في قصيدته التي سماها "اقتصد ولو فلساً"، وقد أنشدها في جمعية خيرية في بغداد سنة 1934:

إن أصـــل الثراء فِلْسٌ وهل سا لـــت ســـيولٌ إلا من القطرات
فاقتـــصد في موارد العيش فلساً كـــلَّ يـــوم من طائل النفقات

---

[1] الديوان، 125.

[2] الديوان، 546.

[3] الديوان، 548.

يـــا شـــباب العـــراق هبوا إليه وتوخـــوا بجمعـــه الـــبركات[1]

كما يبين أهمية استصلاح الأرض، واستثمارها مع وجود عوامل النجاح في الزراعة في قصيدته "نحن على منطاد":

يـــا مـــياها جرت بدجلة تحتا ز مـــروراً بجـــانبي بغـــداد
أيهـــا المـــاء أين تجري ضياعاً وحوالـــيك قاحلاتٌ البوادي؟
لـــو زرعـــنا بك البقاع حبوباً لحـــصدنا النـــضار يوم الحصادِ
أنـــت والله عَـــسْجَدٌ ولُجَـــيْنٌ لـــو أتيـــنا الأمور باستعداد[2]

ويؤكد أن السيادة والاستقلال لا يقومان إلا بالاقتصاد القوي، حين يخاطب فخري البارودي صاحب مصنع النسيج بدمشق:

يـــا سادة الأوطان لستم سادة مـــا عـــشتم في فقركم كعبيد
إن الـــسيادةَ تـــستديْر مع الغنى في حـــاليتي عـــدم لـــه ووجود
لا يستقلُّ بسيفه الشعبُ الذي لا يـــستقل بـــنقده المـــنقود[3]

وتتكرر هذه الفكرة في حديثه إلى الوفد الاقتصادي المصري برياسة طلعت حرب في قصيدتين في ديوانه وذلك في سنة 1936 يقول في الأولى:

مـــن مـــثل "طلعـــتهم" نشاطاً في فعائلـــــــه الحريـــــــزة
أعمالـــــــه للمملقـــــــين بمـــصر قـــد فـــتحت كنوزا[4]

ويقول في الأخرى مبيناً أهمية الاقتصاد وعلاقته بالسياسة وأن المال أساس في ذلك:

إذا مـــا مصر في المال استقلت فـــلا تخشى التأخر في السياسة
فـــإن المـــال أكـــبر ما يرجى بـــه نـــيل الـــسيادة والرياسة

---

[1] الديوان، 127.
[2] المرجع نفسه، 214.
[3] المرجع نفسه، 204.
[4] المرجع نفسه، 344.

إذا مـــا الشعب كان أسير فقر فمـــا تجدي السياسة والحماسة[1]

وينكر على خديوي مصر إقامة الاحتفالات الباذخة بزواج ابنته، وتجاهله حالة المسلمين والحرب الدائرة في البلقان:

أطـــربتهم بلحـــنها الأنغـــام حـــين أدمـــت قلوبـــنا الآلام
ذاك عـــرس تكـــشر اللؤم فيه عـــن نـــيوب كـــأنهن سهام
أشِـــمات بالمـــسلمين وقد دا رت علـــيهم بنحـــسها الأيام[2]

وقد خاطب العمال بمناسبة حفل أقيم تكريماً لهم سنة 1933، وبين لهم دورهم في التقدم الصناعي والتقدم بالحياة:

كـــلُّ مـــا في البلاد من أموال لـــيس إلا نتـــيجة الأعمـــال
لـــيس قدر الفتى من العيش إلا قـــدر إنـــتاج ســـعيه المتوالي
إن للعـــيش حـــومة في وغاها لا تحـــق الحـــياة للـــبُطّال
وإذا قلـــت أنكـــم أنـــتم النا س جمـــيعا فـــلا أكون المغالي[3]

وأن العصر لا يكون إلا لمن تقدم بالأخذ بأسباب العلم:

أيها الناس إن ذا العصر عصر الـــ ـــعلم، والجد في العلا والجهاد
بنـــيت فـــيه للعلـــوم المـــباني وأقـــيمت للبحث فيه النوادي
إن للعلـــم دولـــة خضعت دو ن علاهـــا عـــوالم الأضـــداد[4]

وللحديث في الاتجاه **الثالث**، الذي يخاطب الرصافي فيه الشباب، ويدعو لاستنهاض الهمم، نكتفي بالإشارة إلى أهم القصائد في هذا المجال:

1. إيقاظ الرقود، خماسيات في 33 مقطعاً.

---

[1] المرجع نفسه، 658.

[2] المرجع نفسه، 556.

[3] المرجع نفسه، 484.

[4] الديوان "نحن على منطاد" 216.

2. إلى الشبان، 52 بيتاً.
3. تنبيه النيام 35 بيتاً.
4. معترك الحياة 42 بيتاً.
5. إلى الأمة العربية 19 بيتاً.
6. الوطن والجهاد 44 بيتاً.

خاتمة

ويمكننا أن نخلص بعد هذا البحث المتواضع إلى بعض النتائج على النحو الآتي:

1. توقف الشاعر عند معادلة الزمن، واعتمد الماضي، مصدراً للاعتزاز بالأمجاد، ورفض الاتكال على تلك الأمجاد، والغفلة عند الحاضر والمستقبل، وأكّد على أهمية التخطيط للمستقبل وعدم الالتفات إلى الماضي.
2. العلاقة بين الأغنياء والفقراء علاقة تكاملية، وليست علاقة ندية، ولا علاقة فوقية، وقد صور الفقر والفقراء في مشاهد بارعة بقصد أن يلتفت الأغنياء إليهم، ويحرك أحاسيسهم ومشاعرهم، ويصح فيه ما قاله عبد القادر المغربي من أنه "إذا شاركه في الأغراض الشعرية مشارك، فإنه في وصف البؤس والبؤساء منقطع القرين، وفي إثارة الشفقة عليهم لم يشبهه أحد من الشعراء".[1]
3. وقف عند مشاهد الطفولة الحزينة، وصورها في قصائد كثيرة تصويراً دقيقاً يبين المخاطر التي يتعرض لها الأطفال، مؤكداً ضرورة الاهتمام بهم، لاستكمال معادلة المستقبل الذي أولاه الاهتمام أكثر من الماضي والحاضر.
4. إن ذكر المرأة ارتبط بمشاهد الفقر في قصيدتيه: "أم اليتيم" و"اليتيم في العيد"، وإن المرأة كانت قرين الأمراض في القصائد الأخرى، التي تحدث فيها عن اليتيم ودور الأيتام ومستشفى الأطفال والأرملة المرضعة، وقد

[1] المغربي، عبد القادر، **مقدمة ديوان الرصافي** (القاهرة: المطبعة التجارية، 1957م)، ج1، ص ب.

حرص على تعليم المرأة، وأوحى له العصر أن الحجاب سبب يحول دون تعليمها، ولذلك ذهب إلى تأييد الدعوة إلى السفور وخلع النقاب فيما أشرنا إليه.

5. من استعراض القصائد التي ارتبطت بالمرأة والفقر نلاحظ أن الفكرة نمت عند الرصافي، وهو جزء من النمو الذي تشهده المجتمعات، ولذلك اختلفت نبرة الشاعر وتفاوتت جرأته في دعوته إلى ترك الحجاب بين عامي 1912-1925، اللذين يمثلان تاريخ أول قصيدة نظمها وآخرها.
6. إن صورة الفقر لم تقتصر على قصائد الشاعر في باب النسائيات فما فتئ يتحدث عنها وهي قرينة الأمراض والأسقام، وهذه الصورة تتكرر في ديوانه لأن المرأة تمثل نصف المجتمع، وأن معادلة التقدم والنهضة لا يمكن أن تقوم بدونها.
7. أطال الرصافي وقفته عند تشخيص الداء، ولكنه لم يغفل عن تقديم الدواء والعلاج لهذا الداء، وكان هذا الدواء في أمور أساسية، أعاد وأبدى فيها الرصافي، وهي تتمثل في ثلاثة اتجاهات، العلم مرتبطاً بالسيادة والأخلاق، القوة التي مصدرها المال والاقتصاد، تجنيد طاقات الشباب للنهوض بالأمة واستنهاضها.

وبعد، فإن ما تقدم في البحث من آراء الرصافي في مجال الفقر والمرأة.. لا يمثل كل الآراء فقد تناول الجوانب السلبية في المجتمع في عدد من قصائده، ومنها تعطيل الوزارات عن دورها، وعدم تبنيها إصلاح الحال.. وجوانب أخرى نأمل أن تتوقف عندها دراسات أخرى في قادم الأيام.